١٠ ـ أَشْيَاع امرأة زكريا عليه السلام

كان نبي الله «زكريا بن برخيا»[١] و«عمران بن ماثان» متزوجين من أختين، أما الأول فقد تزوج من «أشياع بنت فاقوذ»[٢]، وأما الثاني فقد تَزَوَّج من «حنة بنت فاقوذ»، فأنجبت «أشياع» لزوجها «يحيى بن زكريا» عليه السلام وأنجبت «حنة» لزوجها «مريم بنت عمران» عليها السلام، وعلى هذا يكون «يحيى» ابن خالة «عيسى» عليه السلام، ومات «عمران بن ماثان» وامرأته «حنة» حامل بمريم، فلما وضعتها بعد رحيل أبيها، كفلها زوج خالتها «زكريا» عليه السلام، وكان نجاراً.

وفي الحديث الذي رواه، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: بعث «عيسى ابن مريم»، «يحيى بن زكرياء» في اثني عشر من الحواريين يعلمون الناس، قال: فكان فيما نهوهم عنه نكاح ابنة الأخ.

قال: وكان لملكهم ابنة أخ تعجبه، يريد أن يتزوجها، وكانت لها كل يوم حاجة يقضيها، فلما بلغ ذلك أمها، قالت لها: إذا دخلتِ على الملك، فسألك حاجتك، فقولي: حاجتي أن تذبح لي «يحيى بن زكرياء»، فلما دخلت عليه سألها حاجتها، قالت: حاجتي أن تذبح لي «يحيى بن زكرياء»، فقال: سليني غير هذا، قالت: ما أسألك إلا هذا، قال: فلما أبت عليه دعا «يحيى»، ودعا بطست، فذبحه، فَنَدَرَت قطرة من دمه على الأرض، فلم تزل تغلي حتى بعث الله «بختنصَّر» عليهم، فجاءته عجوز من بني إسرائيل، فدلته على ذلك الدم، قال: فألقى الله في قلبه أن يقتُل على ذلك الدم منهم حتى يسكن، فقَتَل سبعين ألفاً منهم من سِنٍّ واحدة، فسكن.

---

(١) زكريا بن برخيا عند الطبري (١/ ٥٨٥) وفي غرر التبيان (٢٢٥) زكريا بن أذن.

(٢) أشياع بالياء كما جاء في غرر التبيان (ص ٢٢٥ و٣٢٨)، وفي تاريخ الطبري (١/ ٥٨٥) قال الأشباع بالباء، وفي تفسير (روح المعاني) إيشاع (٣/ ١٣٣).

وكانت «أشياع» قد حرمت من الإنجاب لعقمها، وكان زوجها «زكريا» عليه السلام تواقاً إلى الولد، وقد وَخَطَ الشيبُ رأسَه، وملأ الأسى نفسَه.

وفي ليلة اذْلَهَمَّ ظلامها، واحْلَوْلَكَ سوادُها، رمق الشيخ السماء بمقلته، وسأل ربه المَنَّ بحاجته، وكان صوته خفياً، فقد بلغ من الكبر عتياً، وهو لا يريد أن يُسْمِعَ أحداً، إلا الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً.

قال تعالى في التنزيل العزيز: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾ [مريم، الآيات: ١-٦].

ووصل نداء العبد الفقير الضعيف، إلى سمع مولاه الغني اللطيف، وهبط المَلَك بالجواب، مخترقاً طبقات السحاب، ومعه خير بشرى من العزيز الوهاب: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧﴾ [مريم، الآية: ٧]، فيا لها من بشرى عظيمة! جادت بها يد كريمة.

وكانت فرحة «أشياع» عارمة وسعادتها بغير حدود، لأنها ستضع لزوجها الشيخ أول مولود، ولم يرض خالق الجود والكرم، إلا بإسباغ العطايا والنعم، فسمَّى لهما الغلام، وذلك أبلغ في الإكرام، وأصبحت «أشياع» أم يحيى، وتلك لها أغلى أماني الدنيا.

ولم يكن ليحيى عليه السلام شريك في ذلك الاسم حيث لم يسم أحد قبله به. على ما روى ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة، والسدي، وابن أسلم، وفي هذا مزيد من التشريف والتفخيم له عليه السلام، وهذا كما قال جار الله الزمخشري شاهد على أن الأسماء النادرة التي لا يكاد الناس يستعملونها جديرة بالأثرة وإياها كانت العرب تنحى في التسمية لكونها أَنْبَهَ وأَنْوَهَ وأَنْزَهَ عن النَّبْزِ حتى قال القائل في مدح قوم:

شنع الأسامي مسبلي أُزُرٍ حمر تمس الأرض بالهدب

وقيل للصلت بن عطاء: كيف تقدمت عند البرامكة، وعندهم من هو آدب منك؟ فقال: كنت غريب الدار، غريب الاسم، خفيف الجرم، شحيحاً بالإشلاء،

فذكر مما قدمه كونه غريب الاسم. وأخرج أحمد في الزهد، وابن المنذر، وغيرهما، عن مجاهد أن (سمياً) بمعنى شبيهاً، وروي عن عطاء، وابن جبير مثله، أي: لم نجعل له شبيهاً حيث إنه لم يعصِ ولم يهمَّ بمعصية، فقد أخرج أحمد، والحكيم، والترمذي في «نوادر الأصول»، والحاكم، وابن مردويه، عن ابن عباس أن النبي ﷺ، قال: «**ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هَمَّ بخطيئة، إلَّا يحيى بن زكريا عليه السلام، لم يهم بخطيئة ولم يعملها**».

وقيل: لم يكن له شبيه لذلك، ولأنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر.

وقيل: لأنه كان كما وصف الله تعالى: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عِمرَان، الآية: ٣٩] ، فيكون هذا إجمالاً لذلك، وإنما قيل للشبيه سمي لأن المتشابهين يتشاركان في الاسم[1].

ولما سمع «زكريا» عليه السلام بالبشرى ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ [مريم، الآية: ٨] ، إنه عليه السلام تساءل كيف تلد امرأتي وهي عاقر لم تلد في شبابها وشبابي، وهي الآن عجوز، وقد بلغت أنا من أجل كبر السن يبساً وقحولاً أو حالة لا سبيل إلى إصلاحها، وقيل: إن عمره عليه السلام حين بشر بالولد كان مائة وعشرين سنة، أو تسعاً وتسعين سنة، أو اثنتين وتسعين سنة، أو خمساً وثمانين سنة، أو خمساً وسبعين سنة، أو سبعين سنة، أو ستين سنة، أما عمر امرأته «أشياع» فكان ثماني وتسعين سنة. وجاء الجواب ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾ [مريَم، الآية: ٩] . المراد من ذلك أن الأمر على الله جد يسير، فهو جل جلاله كامل القدرة عليه وإذا أراد شيئاً كان، وقد (خلقتك) أي: أوجدتك بعد أن كنت معدوماً ولم يصعب عليَّ ذلك، على الرغم من ثقة نبي الله «زكريا» عليه السلام بصدق وعد الله، وقدرته على تحقيق ما بشره به، وتطميناً لقلبه ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريَم، الآية: ١٠] ، يا رب! أعطني علامة تدلني على تحقق الأمر الذي سألتك إياه ووقوعه، فأجيب أن العلامة أَلَّا تقدر على تكليم الناس بكلامهم المتداول فيما بينهم، وحالَ

(١) روح المعاني (١٦/ ٦٥، ٦٦).

محاوراتهم. وقد روي عن أبي زيد أنه لما حملت زوجته عليها السلام أصبح لا يستطيع أن يكلم أحداً، وهو مع ذلك يقرأ التوراة، فإذا أراد مناداة أحد لم يطقها، ودام ذلك ثلاث ليال بأيامهن.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم، الآية: ١١] أي: من المصلى، روي أن قومه كانوا من وراء المحراب ينتظرون أن يفتح لهم الباب فيدخلوه ويصلوا فبَينما هم كذلك إذ خرج عليهم متغيراً لونه فأنكروه، وقالوا: مالك؟ فأشار إليهم، وقال ابن عباس: كتب لهم على الأرض. وتحقق الحلم ووضعت «أم يحيى» طفلها.

قال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم، الآيات: ١٢-١٥]. لقد أمر بأخذ التوراة لأن الإنجيل لم يكن موجوداً يومها، وأن يكون آخذه بِجِدٍّ واسْتِظْهار وعملٍ بما تضمنه.

وقد أخرج أبو نعيم، وابن مردويه، والديلمي، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال في ذلك: أعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين، وجاء في رواية أخرى عنه مرفوعاً أيضاً، قال الغلمان ليحيى بن زكريا عليهما السلام: اذهب بنا نلعب، فقال: أَلِلَّعِبِ خُلِقْنا، اذهبوا نصلي فهو قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ والحكم على هذا بمعنى الحكمة، وقيل: بمعنى العقل، وقيل: معرفة آداب الخدمة، وقيل: الفراسة الصادقة، وقيل: النبوة، وعليه كثير، قالوا: أوتيها وهو ابن سبع سنين أو ابن ثلاث أو ابن سنتين، ولم ينبأ أكثر الأنبياء عليهم السلام قبل الأربعين.

لقد أثنى الله تعالى على «يحيى» عليه السلام، فقد كان تقياً متجنباً للمعاصي، وقد جاء في الحديث أنه عليه السلام: **«ما عمل معصية ولا هَمَّ بها»**.

وأخرج مالك، وأحمد في الزهد، وابن المبارك، وأبو نعيم، عن مجاهد، قال: كان طعام «يحيى بن زكريا» عليهما السلام العشب، وإنه كان ليبكي من خشية الله تعالى، حتى لو كان القار على عينه لَخَرَقَهُ، وقد كانت الدموع اتخذت مجرى في

وجهه، وكان شديد البِرِّ بوالديه، كثير الإحسان إليهما، وكان بعيداً من الكِبْر والتجبر والتعالي عن قبول الحق والخضوع له، وهو جم التواضع لا يتطاول على أحد، ولم يخالف أمراً لمولاه، ولم يعقَّ أمَّهُ وأباه، مما جعله جديراً بثناء الله عليه، وذكر ذلك في كتاب سيتلى حتى قيام الساعة، فما أعظم هذا التكريم! وما أولى «ابن زكريا» عليه السلام به!

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم، الآية: ١٥] قال الطبري: أمان من الله تعالى عليه، يوم ولد من أن يناله الشيطان بما ينال به بني آدم، ويوم يموت من وحشة فراق الدنيا، وهو المطلع وعذاب القبر، وفيه دليل على أنه يقال للمقتول ميت بناء على أنه عليه السلام قتل لبغي من بغايا بني إسرائيل، ويوم يبعث حياً من هول القيامة وعذاب النار، ومما لا ريب فيه أنه عليه السلام من الشهداء، جزاهم الله خير الجزاء.

وذكر «الآلوسي» رحمه الله قول ابن عطية: الأظهر أن المراد بالسلام التحية المتعارفة والتشريف بها لكونها من الله تعالى في المواطن التي فيها العبد في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله عز وجل.

وجاء في خبر رواه أحمد في الزهد، وغيره، عن الحسن: أن «عيسى» و«يحيى» عليهما السلام التقيا، وهما ابنا الخالة، فقال يحيى لعيسى: ادْعُ اللهَ تعالى لي فأنت خير مني، فقال له «عيسى»: بل أنت ادْعُ لي، فأنت خير مني، سَلَّم الله تعالى عليك، وإنما سَلَّمتُ على نفسي[1].

وقد عقب الإمام القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره القيم[2] عند تفسير قوله تعالى بما هو آتٍ إذْ قال: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ [مريم، الآية: ٧] في الكلام حذف، أي: فاستجاب الله دعاءه، فقال: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ [مريم، الآية: ٧] فتضمنت هذه البشرى ثلاثة أشياء:

أحدها: إجابة دعائه وهي كرامة.

---

(١) روح المعاني (١٦/ ٧٤).
(٢) تفسير القرطبي (١١/ ٨٢).

الثاني: إعطاؤه الولد وهو قوة.

الثالث: أن تفرَّد بتسميته.

وقد أخرج صاحب «الدر المنثور»، ما رواه ابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال: لما دعا «زكريا» ربه أن يهب له غلاماً هبط «جبريل» عليه السلام فبشره بيحيى، فقال «زكريا» عندها: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ [آل عِمرَان، الآية: ٤٠] ، وأخبر بكبر سنه، وعلة زوجته، فأخذ «جبريل» عوداً يابساً، فجعله بين كفي «زكريا» فقال: أدرجه بين كفيك، ففعل، فإذا في رأسه عود بين ورقتين يقطر منهما الماء، فقال «جبريل»: إن الذي أخرج هذا الورق من هذا العود، قادر على أن يخرج من صلبك ومن امرأتك العاقر غلاماً[1].

ومن المفيد أن نذكر أن توثيق الصلة ين العبد وربه، والاشتغال بذكره، وكثرة التقرب إليه، أدعى إلى إجابة دعاء العبد، ولم يكن «زكريا» عليه السلام قصيًّا عن هذا المنهاج، ولذلك نوَّله الله، ما رامه وتمنَّاه.

ولو لم يكن نهج «أشياع» أم «يحيى» عليه السلام موافقاً لنهج «أبي يحيى» لكانت رغبتها ورغبة زوجها بعيدة المنال، ومن رام شيئاً من ذي الجلال، فليصلح معه الحال.

وقد أخرج الحافظ «أبو نُعَيْم الأصفهاني» في «حلية الأولياء» فقال: حدثنا عثمان بن محمد العثماني: ثنا أبو الحسن محمد بن أحمد، ثنا عمر بن محمد بن يوسف، قال: سمعت أبا جعفر الصفار، يقول: سمعت الفيض بن إسحاق الرقي، يقول: سمعت الفضيل بن عياض، يقول: قال عبد الواحد بن زيد: سألت الله ثلاث ليال أن يريني رفيقي في الجنة، فرأيت كأن قائلاً يقول لي: يا عبد الواحد! رفيقك في الجنة «ميمونة السوداء» فقلت: وأين هي؟ فقال: في آل بني فلان بالكوفة، قال: فخرجت إلى الكوفة وسألت عنها، فقيل: هي مجنونة بين ظهرانَيْنا ترعى غنيمات لنا، فقلت: أريد أن أراها، قالوا: اخرج إلى الخان، فخرجتُ، فإذا هي قائمة تصلي، وإذا بين يديها عكاز لها، فإذا عليها جبة من

(١) الدر المنثور (٥/ ٤٨١).

صوف مكتوب عليها: لا تباع ولا تشترى، وإذا الغنم مع الذئاب، لا الذئاب تأكل الغنم، ولا الغنم تفزع من الذئاب، فلما رأتني أوجزت في صلاتها، ثم قالت: ارجع يابن زيد! ليس الموعد ههنا، إنما الموعد ثَمَّ، فقلت لها: رحمك الله! وما يعلمك أني «ابن زيد؟» فقالت: أما علمت أن الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، فقلت لها: عظيني، فقالت: واعجباً لواعظ يوعظ، ثم قالت: يابن زيد! إنه بلغني: ما من عبد أعطي من الدنيا شيئاً، فابتغى إليه ثانياً إلا سلبه الله حب الخلوة معه، ويبدله بعد القرب البعد، وبعد الأنس الوحشة، ثم أنشأت تقول:

يا واعظاً قام لاحتساب ... يزجر قوماً عن الذنوب
تنهى وأنت السقيم حقاً ... هذا من المنكر العجيب
لو كنت أصلحت قبل هذا ... غيك أو تبت من قريب
كان لما قلت يا حبيبي ... موقع صدق من القلوب
تنهى عن الغيِّ والتمادي ... وأنت في النهي كالمريب

فقلت لها: إني أرى هذه الذئاب مع الغنم، لا الغنم تفزع من الذئاب، ولا الذئاب تأكل الغنم، فَأَيْش هذا؟ فقالت: إليك عني، فإني أصلحت ما بيني وبين سيدي، فأصلح بين الذئاب والغنم[1]. فهل هناك من يرغب حقاً في أن يصلح ما بينه وبين سيده؟ إذاً فليبادر وشيكاً إلى ذلك قبل فوات الأوان، وحينئذ لن ينفع الندمُ أيَّ ندمان.

وقد جاء في الحديث القدسي الذي رواه «أبو ذر» رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله تبارك وتعالى: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزِيدُ، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلُها، أو أَغْفِرُ.**

ومن تقرَّبَ مني شبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً، ومن تقرَّبَ مني ذراعاً تقرَّبتُ منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيتُه هرولةً، ومن لقيني بقُرَاب الأرض خطيئة، ثم لا يُشْرِكُ بي شيئاً، لقيتُه بمثلها مغفرة»[2].

---

(١) حلية الأولياء (٦/ ١٣٧، ١٣٨).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٢١) في الأدب، باب: فضل العمل.

وأما عن كفالة «زكريا» عليه السلام لمريم بنت عمران، فقد قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عِمرَان، الآيات: ٣٣-٣٧].

فما الذي جرى بعد وضع «حنة» أم مريم لمريم؟ لقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما وضعتها خشيت «حنة» أَلَّا تُقْبَل الأنثى محرَّرة، فلفَّتها في الخرقة، ووضعتها في بيت المقدس عند القراء، فتساهم القراء عليها ـ لأنها كانت بنت إمامهم ـ أيهم يأخذها؟ فقال «زكريا» وهو رأس الأحبار: أنا آخذها، وأنا أحقهم بها، لأن خالتها عندي، فقال القراء: ولكنا نتساهم عليها فمن خرج سهمه فهو أحق بها، فدعوا بأقلامهم التي يكتبون بها الوحي، وجمعوها في موضع، ثم غطوها، وقال «زكريا» لبعض الغلمان الذين لم يبلغوا الحلم، ممن في بيت المقدس: أدخل يدك فأَخْرِجْ، فأدخل يده فأَخْرَجَ قلم «زكريا» فقالوا: لا نرضى، ولكن نلقي الأقلام في الماء، فمن خرج قلمه في جرية الماء، ثم ارتفع فهو يكفلها، فألقوا أقلامهم في نهر الأردن، فارتفع قلم «زكريا» في جري الماء، فقالوا: نقترع الثالثة، فمن جرى قلمه مع الماء فهو يكفلها، فألقوا أقلامهم فجرى قلم «زكريا» مع الماء وارتفعت أقلامهم في جرية الماء، وقبضها عند ذلك «زكريا»[1]، ثم قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عِمرَان، الآية: ٣٧] أي جعله لها كافلاً وضامناً لمصالحها، وفي هذا ما لا يخفى من العناية الإلٰهية بها باختيار نبي الله «زكريا» للاطلاع بتنشئتها ورعايتها، فكانت لها غرفة تتحنث فيها ـ أي: تتعبَّد، وهي المحراب المشار إليه في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ [آل عِمرَان، الآية: ٣٧]، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: غرفة بنيت لها في بيت المقدس،

(١) روح المعاني (٣/ ١٣٨).

وجعلت بابها في وسط الحائط، وكانت لا يصعد عليها إلا بسلم مثل باب الكعبة.

وكان لا يدخل عليها أحد إلا «زكريا» عليه السلام كفيلها المكلف من قبل الله تعالى، فيرى العجب مما لديها من الرزق، فقد أخرج ابن جرير، عن الربيع، قال: إنه كان لا يدخل عليها غيره، وإذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب، فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن ذلك من ثمار الجنة، والذي عليه الجلُّ أن ذلك عوض لها عن الرضاعة، فقد روي أنها لم ترضع ثدياً قط، وقيل: إن هذا كان بعد أن ترعرعت، ففي رواية ابن بشر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن «زكريا» ـ عليه الصلاة والسلام ـ استأجر لها ظِئْراً، فلما تم لها حولان، فطمت وتركت في المحراب وحدها، وأغلقت عليها الباب، ولم يتعهد أمرها سواه.

﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ [آل عمران، الآية: ٣٧] أي: من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا، والأبواب مغلقة دونك؟ ﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ قيل: أرادت من الجنة، وقيل: مما رزقنيه هو لا بواسطة البشر فلا تعجب ولا تستبعد، وقيل: تكلمت بذلك صغيرة كعيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقد جمع من تكلَّم كذلك فبلغوا أحد عشر نفساً، وقد نظمهم «الجلال السيوطي» قال:

تكلَّم في المهد النبي (محمد) و(يحيى وعيسى والخليل ومريم)
ومُبْرِي (جريج) ثم (شاهد يوسف) (وطفل لدى الأخدود) يرويه مسلم
(وطفل) عليه بالأَمَةِ التي يقال لها تزني ولا تتكلَّم
وماشطة في عهد فرعون (طفلها) وفي زمن الهادي (المبارك) يختم

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده أن يرزقه ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾، وقد أخرج أبو يعلى عن جابر: أن رسول الله ﷺ أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى شق ذلك عليه فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً فأتى «فاطمة» فقال: يا بنية! هل عندك شيء آكله فإني جائع؟ فقالت: لا والله!

فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته

منها، فوضعته في جفنة لها، وقالت: لأُوثِرَنَّ بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي، وكانوا جميعاً محتاجين إلى شَبْعَة طعام، فبعثت «حسناً» و«حسيناً» إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها، فقالت له: بي أنت وأمي، قد أتى الله بشيء قد خبأته لك، قال: هلمي يا بنية بالجفنة! فكشفت عن الجفنة، فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً، فلما نظرت إليها بهتت، وعرفت أنها بركة من الله تعالى، فحمِدَت الله تعالى، وقدمته إلى النبي ﷺ، فلما رآه حَمِدَ الله تعالى، وقال: من أين لك هذا؟ يا بنية! قالت: يا أبتي! هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فحَمِدَ الله سبحانه ثم قال: الحمد لله الذي جعلكِ شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل، فإنها كانت إذا رزقها الله تعالى رزقاً فسئلت عنه، قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، ثم جمع «علياً» و«الحسن» و«الحسين»، وجمع أهل بيته حتى شبعوا، وبقي الطعام كما هو، فأوسعت «فاطمة» رضي الله عنها على جيرانها[1].

قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذّاريَات، الآية: ٢٢]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذّاريَات، الآية: ٥٨].

والله جَلَّ في علاه، يعطي الرزق لمن يحب ولمن يكره، ولكنه لا يعطي الإيمان إلا لمن يحب، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطّلَاق، الآيتان: ٢، ٣] فهنيئاً للمتقين، ما أعد لهم رب العالمين حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القَمَر، الآيتان: ٥٤،٥٥] وكان «زكريا» وامرأته «أشياع» وولدهما «يحيى» من المتقين، رحمهم الله تعالى.

(١) انظر روح المعاني (٣/ ١٣٩ ـ ١٤١).